

الرؤية إلى الآخر الغربي في رواية حكاية العربي الأخير لـ "واسيني الأعرج"

The Arab vision of the Western other
In the novel The Story of the Last Arab by Wasini Al-Araj

دكتورة مريم النعيمي
جامعة قطر

ملخص البحث

يستهل الكاتب واسيني الأعرج تقديم رواية "حكاية العربي الأخير 2084" من خلال عتبة مناص دالة، وحادة جدا، تُؤشّر على رموز ومعان كثيرة مُضمّنة، تُشبه كثيرا تلك العبارات الإحمائية والتّهيبية للجموع وإثارتها. تتضمّن العتبة المقولة التالية: "العربي الجيد الوحيد، هو العربي الميت". إنها عبارة مأخوذة من خطاب أرسله رجل السلك الدبلوماسي الأمريكي باتريك سيرينغ إلى المعهد العربي في أمريكا. ويوضح الكاتب في العتبة النصية دائما أن أحد اليهود المتطرفين قد استعار المقولة أو العبارة، وقال هو الآخر: "أعزائي اليهود، اقتلوا العرب الآن. العربي الجيد الوحيد، هو العربي الميت". قد يقول قائل إن العبارة ليست من قول الكاتب وإنما هي صادرة عن عدو أو خصم حضاري وثقافي للأمة، لكننا هنا نعرف أن الذي استعارها إلى أجواء النص هو الكاتب، وحدد منظورها واختيارها بناء على هذه العبارة المؤجّجة للمتلقّي من أجل خدمة أهداف استراتيجية تُفصح عنها ثنایا النص كما سنؤكد من خال التحليل الثقافي.

الكلمات المفتاحية:

سرد، العربي الأخير، العتبة النصية، الرؤية، الدلالة

Abstract

The writer Wassini al-Araj begins the presentation of the novel "The Tale of the Last Arab 2084" through a very sharp and impactful threshold, indicating many implicit symbols and meanings reminiscent of those incendiary and provocative phrases addressed to crowds. The threshold includes the second statement: "The only good Arab is the dead Arab." It is a phrase taken from a speech sent by the American diplomat Patrick Sering to the Arab Institute in America, and it has been widely circulated through various international media outlets. The writer always explains in the textual threshold that an extremist Jew borrowed the statement, saying, "Dear Jews, kill the Arabs now. The only good Arab is the dead Arab." Some may argue that the phrase is not the author's words but rather comes from an enemy or cultural adversary of the nation. However, it is clear that the writer adopted it into the context of the text, defining its perspective and choosing it based on this provocative statement to serve strategic goals revealed in the depths of the text, as confirmed by the cultural analysis.

Keywords:

narrative, recent Arabic, textual threshold, vision, significance

رؤية الذات إلى الآخر

يصف الساردُ اللغةَ المُستعملة والرائجة في المستقبل " الأورو لينغوا " المستعملة عالميا، يقول إنها وسيلةٌ تواصلُ: " تعتمد اللغة الإنجليزية الأمريكية كأساس، وبعضَ المفردات اللاتينية التي لم يستطع أحد أن يقاوم سلطانها"¹، وهو هنا يرمز إلى الخطاب الغربي الأوروبي الذي خضع للريادة والسيادة الأمريكية. إن هذا الخطابُ تصوُّه وتُثبِت أركانه القلعة / القاعدة التي كُتِب عليها شعار: " العربي الجيد هو العربي الميت ". بما أننا في بداية الرواية دعونا نطرح السؤال: لماذا يحرص الساردُ على تأكيد هذه الرغبة الغربية المتأصلة في القتل والإبادة العرقية الجماعية اتجاه الكائن العربي؟، ولماذا يشرع منذ المطلع السردى في إذكاء مُمارَسات إحمائيه تحريضية تشخّذ وتشحن مشاعر " القومية الاستدفاعية، القائمة على رد الفعل، بل الارتياحية (المصابة بخبل الريبة) "². إن العالم يفيض بالأحقاد والضغائن والمواجهات اليومية، وليس بحاجة إلى مزيد من خطاب التأجيج وسوء الفهم الحضاري.

والقلعة المقصودة توجد في منطقة صحراوية هائلة، و" كلما تراءت من المرتفعات رسمت صليبا نائما على سطحها الأساسي "(الرواية، ص 49). هنا تلميحٌ صريحٌ إلى أن الموجه الرئيسي لقلعة أميروبا هو البُعد المسيحي والصراع الديني في مواجهة خصمها التاريخي "الهلال" الذي هو رمزُ دين الإسلام الحنيف. ونحن في هذا المستوى من التفسير الثقافي لمُضمَرات الخطاب، لا بأس أن نستحضر ثنائية مُفكِّك الاستشراق إدوار سعيد، فقد عاد في كتابه التالي " تعقيبات على الاستشراق "، وتحدّث عن علاقة السرديات الاستشراقية بآثار التجربة الإسلامية، ويقول في هذا الضأن " ولقد قلتُ بأن الاهتمام الأوروبي بالإسلام لم يكن مستمدا من الفضول، بل إزاء منافس للمسيحية، توحيدى ومتقدم ثقافيا وعسكريا "³، والحال أن سوء الفهم والاصطدام القيمي والثقافي بين العرب والغرب، كان دائما السببَ الأعظم في محاولة ردّ الصاع وإعادة الاعتبار في تدبر العلاقة بين الطرفين إلا فيما نذر من مراحل وفترات حُسن التفاهم وحسن التعامل الحضاري والثقافي كما تُعبّر عنه النصوص والتعبيرات الجمالية والأدبية والفنية. ويجوز لنا التساؤل عن السبب الذي جعل الغرب يخصّ العالم العربي الإسلامي بقدر هائل ورهيب من الدراسة والتمثيل الاستشراقي والاقتحام دون باقي جغرافيات وثقافات الشرق الشاسع؟. من المؤكد أن تعزيز سوء الفهم الثقافي والقيمي بين الذات العربية والآخر وإعادة اجتراره يُنذر بكارثة على مستوى العالم الذي صار صفيحا ساخنا بسبب سوء تدبير الاختلاف.

إن الروائي من حيث يَعِي أو لا يَعِي فهو يخلق مُناخا سرديا مُتوتّرا ويوظف الرموز العقدية والقيمية بشكل سلبي هدام ليس من شأنه أن يكون قيمة مُضافة، بل فقط يشوّه منظور الوعي والذات العربية إلى علاقتها بالآخر المختلف في منظومته، ويصوِّره مركزا للشر والعداء والرغبة في الإفناء، وهو ما يخلق ردود فعل عدوانية لدى المُتلقي. إننا بإقرار وكشف أنساق هذه الرؤية الثقافية، لا يعني أبدا أننا نُبَرِّر الهيمنة أو نمُنحُها الذرائع، بل يعني شحذ القدرة على بحث

¹ واسيني لعرج، حكاية العربي الأخير 2084، دار موفم للنشر، 2015، 47

² إدوارد سعيد، م.س، ص 70.

³ إدوارد سعيد، م.س، ص 119.

اللاوعي الجمعي ونقد الذات لفهم أصول الإشكالية من أجل تجاوزها وعدم تكرارها، بالحرص على عدم تسرّبها إلى منظومة الأنساق الجمعية.

مقابل تلك الفكرة التي يَبْهَمُ الساردُ، فإننا نستشِفُ معالم هذا التسرّب الصدامي الإفنائي إلى ذهنية السارد في النص قيد الدرس، حيث إن بنية النص الباطنية مع الأسف تحمل بذور الرغبة في إفناء الآخر الغربي والانتقام للذات القومية ولو بمحو الآخر عن طريق ما هو رمزي، وذلك على الأقل بما تقدر عليه إثباته أمام وضعية عدم التكافؤ الحضاري. ولا شك أن خيار الانتقام والثأر سهل، بينما خيار التسامح والتعايش عسير أمام نفسية الإنسان، خصوصا في صفوف الجماعات البشرية وسيكولوجية الجماهير المتأججة، " ففي حين أن الرهاب يفترض إبعاد الآخر وموته الرمزي، فإن التسامح يحاول فرض الطريق الصعب، الموجب، التي تمر عبر الاعتراف بالآخر الذي يعيش إلى جانب الأنا، وفي مقابلها، لا متفوقاً، ولا متدنياً، ولكنه متميز، ولا يستغنى عنه. ... " ¹.

ونحن نملك في التجربة الحضارية الإسلامية لحظات فارقة في إعطاء النموذج على التفاعل الإنساني الخلاق، من ذلك مثلا تجربة "وثيقة المدينة" إبان حياة نبي الإسلام الذي شارك الكثير من أهل المعتقدات والأعراف الحياة والسلم والمعاملة الكريمة الطيبة على أساس من الاحترام الإنساني المتبادل، والمجادلة بالتي هي أحسن. وأيضا ما قدّمته التجربة العباسية زمن إشراقة الفسيفساء الإنسانية وحركة الترجمة الهائلة التي فتحت آفاق الثقافية والعلمية الرحبة في الفكر والواقع معا، ثم التجربة الأندلسية التي تبقى الدليل والشاهد الحضاري الإسلامي الأقوى على الإيمان بتحقيق العيش المشترك والتضافر العقدي والعرق في بناء وهج الحضارة والثقافة التي سطعت على العالم: إذ " ليس مرمى التاريخ الجينالوجي إذن استرجاع جذور هويتنا، وإنما القضاء عليها، إنه لا يأخذ على عاتقه رصد المنشأ الوحيد الذي صدرنا عنه وذلك الموطن الأصلي الذي يعدنا الميتافيزيقيون بالرجوع إليه، إنه يسعى لإظهار كل الانفصالات التي تخترقنا " ²، والتي تدلّ على وجود الآخرين فينا من خلال التفاعل والتناسُج بين الروافد الثقافية والإبداعات الجمالية واللغوية، والتي بلا شكّ قد أغنت وأثّرت وجودنا وخبرتنا التاريخية.

بالرجوع إلى أجواء النص، نجد أن قائد قلعة أميروبا قد: " جعل منها قاعدة متقدمة ضد الإرهاب، وحماية المصالح الطاقوية لأمريكا وفدراليات أوروبا... لا أحد يراه إلا القيادات العليا التي وضعت في هذا المنصب "(الرواية، ص 151). نلاحظ هنا أن السارد المهيمن يُذكي فكرة مفادها أن أمريكا هي محور الشر والبُغض، ويعتاشُ على رُهاب الغرب. من خلال هذا السارد الخصوم سنرى في ما بعد تفاصيل النية والمؤامرة الأمريكية المُبَيّنة ضد الكائن العربي عبر مشهد الإفناء النووي. إن الكاتب الضمني، من حيث اللاشعور، يُعزّز الرُهاب العربي تجاه الغرب / أمريكا، حتى وإنْ أوهَمنا على مستوى الشعور أنه يدقُّ ناقوس التنبيه المُسبق إلى المآلات المصيرية التراجيدية للوجود العربي !! وما دامت أنها رواية

¹ دانييل هنري باجو، الأدب العام المقارن، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، الطبعة الأولى، 2008، ص 79.

² مشيل فوكو، الرابط، <https://2u.pw/qclZlKq>.

حول المستقبل القادم كما أشرنا في تقديمها، فإنها تحمل بذور المواجهة الثقافية والإفناء حتى وهي تتقنّ بالتحذير والتنبيه، لأن ميكانيزمات المواجهة القيمية هي المحرك لبنية السرد والخطاب.

يؤسفنا القول إن هذه الرواية تقطع أواصر التواصل الثقافي، فنحن نلاحظ أنها تدفع العربي دفعا نحو سوء الفهم وعدم الثقة في الآخر، تحثّ العربي كما لو تقول له انظر ماذا يحيك لك الأمريكي الشرير، هيا اقرأ في رواية الغيب (2084) حتى ترى مآلك التراجيدي. بينما كان الأخرى بها أن تُوقظ وعي العربي عن طريق سلطة الخطاب الروائي إلى عدم السقوط في فخ الكراهية والانتقام حتى وهو يسمع ناقوس الخطر والتحذير من أي مآل غير مرغوب. إن مفهوم جرح الهوية الذي وظّفه المفكر المغربي عبد الكبير الخطيبي، لا ينبغي أن ينقلب إلى عُقدة خوف أو مرض حضاري. إننا لا نُقدّم من جواب آخر، سوى أن تخرج الذات الجماعية من مغالق هذا التفكير الهدّام وتحرص على الإيمان العميق "بالإنسانية والحرية وضرورة التواصل والتفاعل والإثراء المتبادل بين الثقافات والمجتمعات، والصراع ضد الاستعلائية والاستعمار والهيمنة والتسلط والتمركز الغربي، وضد نقائضها من قوميات ضيقة، وهويات متشرنقة وتمركز إسلامي أو عربي أو أفريقي"¹. فإذا كانت الدراسات الثقافية تواجه فكر السيطرة والهيمنة واللاتكافؤ، فإن الفعل النقدي يقتضي اليقظة المعرفية، وعدم تحطيم الآخر مقابل تعظيم الذات الجماعية.

ونحن نمضي مع توالي دوائر السرد وتداخل مدارات الرواية، نتعرف بشكل أعمق على الشخصية الرئيسية، حيث يبدو آدم عبر الخطاب المنقول المباشر من خلال كتاباته في سجن القلعة. نعرف أنه حُلّم منذ أن كان طفلا ويافعا أن يصنع قنبلة نووية لا يستعملها، وإنما يُهدّد بها كل من يظلم الآخرين، وقد دفعه إلى ذلك الحلم وضع: "فقراء الجبل والرمل الذين يسكنون الخيام، يموتون بالعشرات، بالآلاف، وربما بالملايين، ولا أحد يسمع نداءاتهم" (الرواية، ص 41). لقد اختطف آدم وبقي رهن أنواع من التحريات وطرائق متعددة من التحقيق والاختبارات عبر لجان وفرق خاصة، حتى تأكدوا أخيراً أنه ليس إرهابيا، بل أنه عالم نووي ليست له انتماءات، فاحتفظوا به لحمايته في القلعة، لكننا سنعرف أن هناك سببا آخر للاحتفاظ به هناك، وسنحلله في حينه.

في وقت لاحق يجتمع آدم داخل القلعة مع البروفيسور سميث مدير مختبر بنسلفانيا بحيث يكون اللقاء مفاجأة غير مُنتظرة، لأنه زميل سابق في المختبر الذي بدأ فيه آدم مشروع عمره لصناعة قنبلة بوكيت بومب المضادة للإرهاب. لقد تم استقطاب سميث ليُطمئن آدم ويقدم له عرضا للعمل من أجل تطوير اختراعه داخل القلعة، مؤكدا أن أجناسا مختلفة تعمل في مختبر القلعة، بل ويزيد أيضا: "معنا أرابيون كثيرون في مخابرننا ومخازننا، وهم نعم المنضبطين، هذه التعددية هي التي تصنع أمريكا اليوم، ولا أحد أفضل من الآخر" (الرواية، ص 129). هنا تأتي صورة الأمريكي العالم، لكننا سنتعرف على مآله في النص وفي أي خانة يكون تصنيفه من طرف السارد العربي، وذلك من خلال التصور الذي تحمله الذات عن نفسها وعن علاقتها مع الآخر الذي يتقاسم نفس الوجود التاريخي معها.

¹<https://2u.pw/aErg65Z>

أخيرا اجتمع آدم، وسميث وويليام مع كل طاقم المختبر: " جوهر النقاش كان حول ضرورة الانتهاء من المشروع بسرعة، لأنه أصبح مطلوبا أكثر من أي وقت مضى، لا من أجل المزيد من الحروب، ولكن للحد منها كما قال ويليام "(الرواية، ص 174). تلاه اجتماع أول رسمي بين جنرالات المارينز والفريق العلمي وذلك حتى يُقدّم آدم آخر تقرير قابل انطلاق أول عملية تجريبية للقنبلتين النوويتين. في أثناء ذلك اللقاء، يقول سميث: " كيف نجتمع بين السلام وقنبلة صغيرة ؟ لكنها فتاكة بالعدو وليس بالطبيعة. السلام يحتاج للأسف إلى قوة للجُم سلطان التنظيم"(الرواية، ص 174). إن البروفيسور سميث الذي أشرنا سابقا إلى أنه ظهر صاحب خطاب علمي وثقافي رائد، ها هو سرعان ما يتقلب عليه السارد الضمني ويصوّره صاحب خطاب أمريكي يبرّر الإبادة والعنف باسم استتباب السلم في العالم، ومن خلال هذا التصنيف فإن السارد يلحقه بخانة محور الشر المطلق.

عقب القيام بالتجريب النووي، نسمع آدم يقول: " أتمنى أن يسهم هذا في تنمية الدفاع عن النفس ضد المعتدي فقط، وليس ضد من يختلف عنا. وإلا ستُفني البشرية بعضها بعضا "(الرواية، ص 319). إذا لاحظنا جيدا فإن الشخصيات الأمريكية تُقدّم في هذا الخطاب الثقافي وهي لا تهدف إلا إلى صناعة القنبلة وإطلاقها بشكل شرير فيما بعد، في مقابل ذلك يتم تقديم آدم في صورة العربي المثالي عاشق السلام. أمّا في الطرف الأمريكي، أي محور الشر، فإن كلّ الشخصيات سواء، لا خوف ولا حرص لديها على السلام أو على مستقبل البشرية. إن هذا بلا شك هو حكم تعميمي غير موضوعي البتة يجد سنّده في بعض مقولات النسق العروبي القومي والإسلاموي الذي يقدم سرديته على أن فيها كل الخير للبشرية، بينما لا تحمل كل خطابات باقي الناس خيرا للناس، أو على الأصح أن سرّيتها غير صحيح ولا ترقى إلى سرديّة الذات !!.

نُدرِك جيدا أن " في كثير من التنظير حديث العهد تعتبر مشكلة التمثيل مركزية، لكنها نادرا ما توضع في سياقها السياسي التام وهو سياق إمبريالي بالدرجة الأولى"¹، لكن يجب الانتباه هنا إلى أن مشكلة التمثيل في سياق الخطاب العربي قيد التشريح، تنزاح من سياق إمبريالي إلى سياق ثقافي أصلا نى اندغم لاحقا مع القومية ليأخذ طابعه الشمولي المضاد. وأن " نقبل الأصلانية هو أن نقبل عقابيل الإمبريالية، أن نقبل الانقسامات العرقية والدينية والسياسية التي فرضتها الإمبريالية ذاتها، وأن نهجر العالم التاريخي تعلقا بماورائيات جوهرائية مثل الزنوجة والإيرلندية والإسلام والكاثوليكية، هو أن نهجر التاريخ من أجل تجوهرات تملك القوة لتسيير البشر بعضهم ضد بعض"². لقد تأكد عند إجراء العملية التجريبية أن القنبلتين لم تنظبطا للتوقعات والمبرمجة كما يُريدها الطاقم، بل إنهما تُشكّلان خطرا إشعاعيا مُهدِّدا، وذلك بعدما تم فحص النتائج عبر أجهزة ومعدات جد متطورة من طرف مختلف فرق الخبراء، لا سيما القنبلة من الصنف الثاني. وفي حوار بُعيد التجربة، يقول المستشار الأول لآدم: " درع هجوم التنظيم الذيقتل

¹ إدوارد سعيد، م.س، ص 123.

² إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبوديب، الطبعة الرابعة، دار الآداب بيروت، 2014، ص 286.

خيرة أبنائنا"، ثم يردُّ آدم: "وسرق بشر آرابيا كلهم ورماهم نحو التيه والموت". من خلال تركيز السارد بشكل راسخ على الثنائية العربية الأمريكية والمواجهة المتكررة بين الكيانين الثقافيين من هنا وهناك، يبدو وكأن نسق النص ينفُضُ من خلال باطنية في وجود "عالم عربي قائم بذاته، محافظ على كيانه، يستطيع أن يقوم بالمواجهة المحتومة بين الكتلتين الشرقية والغربية"¹!!

إننا نجد هذه الرغبة كامنة، وفي أحيان عدة سافرة، في الخطاب الثقافي الذي يقع في فخّ عدم التمييز بين الموقف من الجوانب السلبية في السياسات الغربية وبين الموقف الشمولي الرفض لما هو غربي، كأن هذا الخطاب النسقي المأزوم يُلَوِّذ بحمى لاشعور الماضوية المتقاتلة. وبعبارة المفكر جورج طرابيشي، فإن "التواصل مع الحضارة الحديثة لا الانقطاع عنها هو وحده الذي يمكن أن يضيف إلى قديم التراث جديدا وإلى قيمته فضل قيمة، وأن ينفخ في مواته حياة، وأن يكشف فيه، بالاستعانة بحفريات المعرفة الحديثة ومعمارياتها، عن مكامن ثرة، ما كان من الممكن قبل اليوم حتى الاشتباه بوجودها"². وبدورنا نؤكد أن الحضارة اليوم هي نتاج تفاعل وتكامل الثقافات الإنسانية، لذلك فإن التعامل والإيمان بالمنجز الحضاري العالمي لا ينبغي أن يخضع لعقد النقص أو العداء، وما هي إلا دورات حضارية تُفيد منها الإنسانية جمعاء.

بعد أن يُخَيِّم مناخ الريبة والشك داخل الطاقم العلمي والعسكري، يتدخل المستشار: "إذا بقي الإنذار بلا جواب، تطلق القنبلة النووية الصغيرة. تطبيقا لقانون السن بالسن، والبادي أظلم الذي رفع شعاره الماريشال ليلتل بروز"، عند هنا يتدخل آدم: "لكن المشكلة الوحيدة هي تحديد من هو البادي أولا. كل المشكلة هناك يا عزيزي" (الرواية، ص 120). إنهما يتبادلان الاتهامات القاتلة والإفئائية، وهنا يؤكد الكاتب المرجعي، على لسان شخصية آدم، أن جوهر المشكل ليس تجاوز الانتقام وبناء المحبة الإنسانية، بل هو تحديد البادي. بالتالي، فإن نقول إن كتابة تنطلق من هذه الرؤية لن تصنع شيئا آخر سوى ترسيخ وتعزيز صراع العقائد الثقافية والهوياتية في وعي ولاوعي القارئ العربي. ويبقى تفكيك أنساق مثل هذا الخطاب الصدامي هو الترياق الممكن من أجل كشف مخاطره وتفادي أثرها على الذات الجمعية، من هنا فإن النقد الثقافي يلعب دورا معرفيا وقائيا وعلاجيا.

لا بد من طرح بعض الأسئلة حول الموضوعات اللازمة في هذا المبحث من الكتاب: يا ترى لماذا يصوّر آدم هو الشخصية المركزية والمحورية في النص، بل لماذا يظهر هو تحديداً بصفته الشخصية المحورية حاملة راية السلام والخوف على الإنسانية من خلال مشروع القنبلة ذات الإشعاع المحدود للقضاء على منابع الإرهاب وتخليص الإنسانية؟، ثم لماذا يتم تصوير آدم بصفته الخير المطلق والنبيل الخالص والمُخْلِص؟، وفي المقابل، لماذا يُعزِّزُ المؤلفُ صورة أمريكا وأوروبا، أي الغرب الراغب فقط في تدمير وإفناء العرب؟، كَأ، كلّ ما يفكر ويهدف إليه الآخر المختلف

¹ مصطفى عبد الغني، الاتجاه القومي في الرواية، عالم المعرفة، ص 44.

² جورج طرابيشي، م.س، ص 179.

ثقافيا هو تدميرُ الذات المثالية. إن هذه الأمثلة للذات الجمعية مقابل شيطنة الآخر لا تعدو كونها تعبيراً عن حالة مرض حضاري ورُهاب هوياتي ثقافي يجبُ الوعي به وتفكيكه.

إن الذات الكاتبة تتماهى مع الخيال الاجتماعي واللاوعي النسقي الجمعي الذي نجده في العديد من مواقفه يرتاب من الآخر الغربي المختلف من حيث المنظومة الثقافية والقيمية، وهنا تُصبح سيكولوجية الجماهير ذات سلطةٍ من العسير أن تُقاوم، تجرُّ إلى دائرة نفوذها الإدراك الفردي للكاتب. إنها إذن روايةٌ لم تستطع أن تتجاوز سلطة النسق الجماهيري، كما يشرحها مُبتكر التحليل النفسي سيغموند فرويد¹.

نسق الاستعلاء الثقافي والهوياتي.

من خلال السارد يتم تقديم شخصية الجنرال الملقب " ليتل بروز"، واسمه مالكوم بلير، فيظهر " بوجه مدور مثل طفل أبله، برأس كبير كأنه في النزاع الأخير من سرطان دماغي. ملامحه أقرب إلى ملامح موسوليني في عز أيامه " (الرواية، ص 14)، فقد ساقه الأيمن ويده اليسرى في هجوم الرمادي أثناء الغزو الأمريكي للعراق. بل و" حتى حاجاته الطبيعية بالكاد يقضيها، فقد اختل كل شيء في جسده"، بعدما تم تعويض كثير من " أعضاء جسمه بأخرى اصطناعية منها عضوه التناسلي الذي يساعده على التبول" (الرواية، ص 21). يحمل هذا الأمريكي صفات الفاشية مع البلاهة بينما هو جالسٌ في غرفةٍ مُخصَّصة لمراقبة البناية الهائلة. إنها مع الأسف صورة ثقافية لا تُضمّر، بل تُعلن قدراً عالياً من الكراهية والبُغض. هكذا هي في المطلق: صورةٌ للفاشي والمتشوّه الخلقي كلياً، كأن هذا الآخر لا يحمل أي جينات تجعله إنساناً بحسناته وسيئاته.

يتساءل الماريشال مع المستشار جون زون: عن سبب عدم انتساب آدم، سجين القلعة إلى الجرذان، بذل انتسابه لذئبٍ قاتل وشرسٍ وهارب باستمرارٍ من مُطارديه. وبدورنا نظرح سؤالاً: لماذا يتم تصوير الأمريكي بهذه الفظاظة وهذا الكم من الحقد في قلبه تجاه العربي؟، هل من أجل أن يجد الساردُ العربي المُبرَّرَ ليُصَرِّف حقداً وكراهيةً بديلةً نابعةً أصولها من أصداء النسق الثقافي الضارب في الصراع التاريخي بين الطرفين؟.

إن آدم منذ مطلع الرواية حتى نهايتها يتحدث عن جده الملقَّب رماد، هو الذئب البري العصي عن المحو، ذئب السلالة الذي يواصل الركض في التاريخ ويتماهى معه، هارباً من الأعداء، باحثاً عن الأبدية ومقاومة دورة التاريخ. هذا الارتداد نحو الماضي يؤشّر إلى رغبةٍ توهُمية في الاحتفاء بماضٍ ذكوري خوفي من رُهاب النقص الفكري والعقدة الثقافية التي يُعزِّزها المُتفوّق الحضاري، بما يرمز ويؤشّر إليه من اختراق ذكوري فاعل تجاه المستلب المُنفعل في المعادلة الحضارية الراهنة. ومختلف هذه العمليات ذات الإيحاء التفوّقي تجد بينتها في المقولات النسقية والصدامية المديدة بين الخطاب الثقافي العربي ونظيره الغربي.

¹ انظر فرويد، علم نفس الجماهير، ترجمة، جورج طرابشي، دار الآداب، ص 22.

للتعرّف أكثر على آدم، فهو عربي يُتقن العديد من اللغات، لكنه مُصرٌّ على الكتابة بلغته العربية التي انقرضت منذ زمان، ذلك لأن الأحداث تجري في المستقبل، وله صيتٌ لدى الجمعيات الدولية الحقوقية ولدى أهله في البحر الأحمر ومضيق هرمز. آدم هو واحد من تلك " الكائنات المنقرضة التي لم تبق منها إلا عينات نادرة وضائعة في قفر أرابيا والصحارى، الآيلة إلى الزوال حتماً " (الرواية، ص 88). يقول في تقديم نفسه: " عالم نووي أمريكي. من أرابيا التي لم تعد موجودة إلا كتيه رملي، ولي قيمتي وإنسانيتي " (الرواية، ص 23)، وقد كان موضع صراع بين أرابيا وأزاريا، أي إسرائيل، ونجا من محاولة اغتيال، في مطار شارل دوغول، دبرتها منظمة أزارية مُختصة في اغتيال العقول العربية. في هذا المستوى من التفسير يمكن القول إن الهزيمة خلّفت أثارا مستمرة على الكبراء العربية، وسبّبت ندوباً قائمة وجُرّحا نرجسيا غائرا في الذات، وهو ربما ما جعل غلّها يتفاقم تجاه الغرب بسبب علاقته الوطيدة ودعمه إسرائيل في كثير من المواقف، واعتبارها ضيمته ومنه.

عبر الخطاب السردى نعرف من المذكرات التي يكتُبها المارشال أنه يعيش توتراً وقلقا نفسيا وعضويا رهيبا، يتخلّص منه بتدوين اليوميات، وأن هناك مَرَكزا لعمليات تركيب وزرع الأعضاء المسروقة من جثث العساكر والأجساد العربية المُتهالكة في الصحراء، يستفيد من خدماته الطبية كبارُ رجالات العسكر. وعلاوة على كل الاحتياجات الغربية، فإن الأمريكي ليتل بروز يستعمل حَقَاطة تُخرجه بتسرّب الرائحة الكريهة رغم كل المُعطّرات، وهو مُولّع بشخصية بيغ برادرز بطل رواية جورج أورويل (George Orwell) الموسومة "1984" التي تتناص معها " حكاية العربي الأخير 2084"، ولذلك فقد تقمّص شخصيته، وأقام احتفالية بذكرى القدوة مُوزّعا نسخا من الرواية على كل من في القلعة المهيبة.

أما الاسم الحقيقي لهذا المخلوق المُشوّه سرديا، فهو الجنرال دافيد حيون دوغلاس، من أصول يهودية لاقت عائلته المصير النازي، وهو " يجد أحيانا مبررات كثيرة للنازية التي اقتادت أهله للمحتشدات، حتى اتهم بمعاداة السامية، لكنه لا يجدها للآرابين " (الرواية، ص 151)، وهو " يحمل سكان أرابيا ما حدث له " (الرواية، ص 151). نعرف هذه التفاصيل عبر الفاعل المُتخرط في القصة أي البروفيسور سميث. إن المؤلف حريصٌ على ربط التواطؤ الأمريكي في الحقد على العرب والرغبة المُطلقة في تدميرهم. ومهما تكن المسافة الفاصلة بين هذا التمثّل الذهني والواقع، فمن المؤكد أن " الأحكام المسبقة هي من صناعة الثقافة "، ونحن نؤكد أن الجزء الأكبر من الثقافة يتأسّس على مقولات اللاوعي التاريخي ورؤيته إلى الذات والعالم، سيما لدى المجتمعات المُمتدة في التاريخ.

يستعرض الساردُ جملةً من شعاراتٍ ومقولات الطاغية ليتل بروز ضد العرب: " كل آرابي إرهابي حتى يثبت العكس. كان يكررها كلما وقعت عملية إرهابية في مكان ما " (الرواية، ص 176)، " من ليس معنا، ليس فقط عدونا، يجب أن يمحي " (الرواية، ص 192). وهي مقولات رئيسية تتكرر في أغلب اللحظات التي يتحدث فيها ليتل بروز، حتى تتأكد وترسخ صورة أمريكا رمز الشر والبطش ضد العرق العربي. وبينما يكون: " العيش على تخوم التاريخ واللغة، وعلى

حدود العرق والجنس هو ما يتيح لنا أن نكون في موقع يسمح بترجمة ما بيننا من ضروب الاختلاف إلى نوع من التضامن¹، نجد أن السارد المرجعي يسير بمُجريات السرد من الاختلاف إلى الخلاف الهوياتي المؤسّس على تبادل الكراهية وأصناف الإفناء. يتأكد لنا الجانبُ الخطير من الخطاب السردى الثقافى ومدى قدرته على تعززي عيوب الأنساق في الشخصية الجماعية، لذلك نشدد على خطورة الخطاب وضرورة إخضاعه لمحكّ التشريح والنقد الثقافى. وهو ما دعانا إلى اختيار هذه المقاربة النقدية واعتماد بعض النماذج الروائية في التحليل.

أخيرا يتمكّن آدم من التواصل مع زوجته، وقد ظلّ يُلجّ في هذا الطلب منذ ما يفوق خمس سنوات من تواجده في القلعة، بل إنه تَرَقَّى من وضعيّة مُقيم إلى ضيف بفضل مساعي منظّمة حماية الأنواع الآيلة للزوال وزُملائه في مختبر التجارب النووية الذين ستثبّت إدانتهم سرديا مرة أخرى من طرف صانع هذا الخطاب الثقافى. يجري الاتصال عبر وسيلة السكايب، وبصعوبة تُوافق زوجته على انضمامه لمشروع إكمال القنبلة النووية ضمن برنامج القلعة، مُتوجّهة إليه بهذا الرجاء ومُعبرة عن أملها فيه: "أكثر من 400 مليون من آرابيا ينتظرونك، مات منهم في نصف القرن الأخير أكثر من ربعهم، تقاتلوا حتى أبادوا أنفسهم. ازرع الأمل فيهم. اعتبر نفسك العربي الأخير وعلى ظهرك مسؤولية إعادة بعثهم من جديد" (الرواية، ص 238). آدم هو الحل، كما هي دعوات: أمّتي / أنا / مرجعيّتي هي الحل، كما هي دعوات الآخر في قوله: أمّتي / أنا / مرجعيّتي هي المُخلص !!! إنها نفس طرائق الفهم النفسى الأحادي تتكرّر في حلقات اللاوعي التاريخي للجماعات الثقافية.

عبر صوت آدم الذي يمتزج مع تعليقات السارد، نسمع: "كل المجتمعات بمجرد انتقالها إلى أقاصي الهيمنة انتحرت ... الذي يهدد أمريكا قوتها الزائدة" (الرواية، ص 328). بقراءة ظاهرة لهذه الجملة الأدبية، لا نملكُ إلا أن نوافق القائل، لكن بقراءتها على المستوى الطباقى ندرك أنها جملة نسقية تُعبّر عن رغبة باطنية في زوال أمريكا، بسبب أنها مصدر الشر والخطر الذي يهدّد الذات الجماعية بالمحور. والسارد، تدفعه غريزة البقاء، إنما يهدف إلى استعادة توازنه النسقي الوجودي بدفع الخطر الذي يهدّده - أمريكا - إلى دائرة الموت الاستهامي.

توجّه السيدة إيفا، وهي عضو منظّمة حماية حقوق الكائنات الآيلة للزوال رسالة إلى آدم، ومن خلال هذا الخطاب، تتأكد صورة الاتجار في الأعضاء البشرية الآرابية بعد التقاط الجُثث المتساقطة والتلاعب بها عند غُرف العمليات الطبية، سيما في القلعة. هنا يقدم النص واحدة من الصور الثقافية الأكثر تدميرا للآخر. تتأكد هذه المشاهد على لسان آدم نفسه، عندما يلاحظ حركة المُقايضة والمُتاجرة الدائبة واليومية، إذ يراها وهو في مرانه الرياضى اليومي على مدرج المطار. يلاحظ سيارات الهامر العسكرية تحمل صناديق الأعضاء البشرية وأكياس العُمّلات النقدية. ويعرف أن عناصر من التنظيم والقلعة والطاقم الطبي متورطون جميعا، بل إن عمليات تجارية ضخمة في النفط تتم بحماية وتغطية فيالق ومُعِدّات القلعة.

¹ هومي بابا، موقع الثقافة، ترجمة، ثائر ديب، المركز الثقافى العربى، ص 291.

يرتقي سميث غوردن إلى منزلة جنرال، ويموت في حادث غامض نُسب للتنظيم، لكن يبدو فيما بعد أن ليتل بروز ونائبه قد تسبّبوا في الحادث، وذلك بعدما أكّدا رغبتهما في بحث سُبل تنقيله حتى تكون لهما السُّلطة في المنطقة. إن سميث هو أحد أفراد بعثة مراقبة النووي في أزاريا / إسرائيل، وهو "ربما كان أكثر سكان أميروبا فهما لداخله" (الرواية، ص 383)، أي فهما لآدم. إنه وبعد أن لقي مصرعه ينال حظاً من التمثيل الإيجابي والإنساني !!، فهو "يقول بصوت عال ما يفكر فيه باطنياً. أصبح أحياناً مصدر شبهة حتى بالنسبة لليتل بروز، لكنهم لم يجدوا ولا ذرة تشكك في وطنيته" (الرواية، ص 385). عندما سأله آدم حول الوضع الذي يعصف بأمريكا، ويُحوّلها "إلى ثلاث قوميات متقاتلة: البلاك واللاتينو والأوروبيون"، كان جوابه: "هذا العى صنعه المال، وسيتحول إلى دم لن يتوقف، ما دام ثقل الأزمات تتحمله جهة واحدة. البلاك لم يكونوا ملائكة ولا اللاتينو، لكن البيض ليسوا أيضاً رسلاً منزهين" (الرواية، ص 385). نلاحظ أن السارد العربي على وعي بقيمة رأي سميث حول فكرة إيجاد صيغة قومية دستورية ومواطنة بالتوافق والتواضع على ترسانة من المبادئ والمؤسسات داخل نسيج وطني، إلا أنه من جهة أخرى يروم تهريب هذه العلاقة نحو الشعور القومي العربي المتفوق حول الذات، سيما في علاقة آدم مع الكيان الأمريكي. وهذا الأمر يؤكد رسوخ الاستراتيجيات النسقية ومدى سُلطانها في النظر إلى الذات العربية والآخر الغربي تحديداً. ودائماً ما نجد صدى الصدام حاضراً بين منظومتي القيم الثقافية والمرجعية، دونما مساعي للتقريب بين وجهتي النظر وبحث سُبل الوثام والتقارب الإنساني والحضاري.

تستمر رؤية السارد في التمثيل البنّاء لشخصية آدم ممّا يدعو إلى الاندهاش، ونكتشف مع اضطراب السرد أن سميث هو الذي فتح تحقيقاً حول تهريب الأعضاء البشرية والاتجار فيها داخل القلعة، وذلك عل إثر توصّله بشكوى من سكّان السد ومن منظمة حقوق الأجناس الآيلة للزوال. وقبل موته يترك سميث وصيةً لدى مُساعدِه ميجر توني، معها جهاز / USB. تحدّث المفاجأة حين يتسلّمها آدم ويكتشف الخدعة الكبرى، فالجهاز يُظهر اللحظة الفعلية لمحاولة اغتياله واختطافه عندما كان في المطار، وكيف تم إنقاذه واقتياده إلى القلعة، لكن المشهد الفارق في الفيديو هو حين تظهر زوجته أمايا وقد سقطت أرضاً برصاصتين. كانت الأولى في الساق بينما الثانية في الرأس، فيُدرك آدم أنه كان ضحيةً لمكيدة ومؤامرة مُتكاملة العناصر والأركان عندها "يظهر ليتل بروز في جهاز شاشة الحائط قائلاً: "نعتذر يا عزيزي.. اضطرنّا إلى ذلك. كل فريق العمل كان في حاجة ماسة إليك، أنت من يملك أساسيات البحث المسجل باسمك في مسألة انصهار الجزيئات وكيفية التحكم فيها والتحكم في الطاقة الناتجة عن ذلك... عليك أن تتفهم. لولا ذلك، ما كنت قبلت" (الرواية، ص 402). وفي فورة غضبٍ غير مسبوقه يصطدم آدم مع ليتل بروز في سجال معروض على شاشة العرض الكبرى، هنا نتحقق من أن الأوصاف الانتقاصية سواء في التصور العام أو التفصيلي حول شخصية ليتل بروز، هي نفسها التي تم التعبير عنها عبر المنظور الخارجي للكاتب والذي يُوجّه منظور رؤية آدم داخل النص. ومثلما لاحظنا في فقرات ومقاطع مختلفة يحدث التماهي بين صوت آدم وصوت السارد البراني من خلال "عملية ممّاهة أو

توحيد في الهوية بين البطل والمؤلف"¹ حسب قول جورج طرابيشي. وهذا التماهي هو ما نخشى من وقوعه بين القارئ والكاتب، مما سيزيد من أعطاب الذات الجمعية ويُعزِّزُ أنساقها الثقافية الهدامة.

جدير بالذكر أن هذه الصور الهدامة ظلت لاصقة في شخصية ليتل بروز على امتداد الرواية، ممّا يجعلها تنضاف إلى مُجمل السرود الروائية التي "سواء في مرحلة الاستعمار أو ما بعد الاستعمار، تسقط وبشهادة الكثيرين، في الموقف نفسه الذي سقط فيه الاستشراق (أثنية الشرق) ونقصد إلى أثنية الغرب، التي يمكن تأطيرها ضمن استراتيجية الاستغراب العربي"². واستكمالا للاستغوار الثقافي في الطبقات النسقية للنص، فإن استراتيجيات الاستغراب العربي أي التوجُّه إلى مخاطبة الغرب بترسّانة من الصدمات والمُشاحنات المُعاصرة، كما يؤكد هذا الكتاب، ليست جذرا نقف عند حدّه كما سبق التنبيه إلى ذلك، بل إن هذه الاستراتيجيات الاستغرابية تجد مادّتها الخام في ذلك التراكم التاريخي الكبير، القائم على الثنائيات المتطرفة والمدمّرة التي كتبت تاريخ العلاقات العربية الغربية في مراحل مختلفة من تاريخ هذه العلاقة. حتى نرفع اللبس، فنحن لا ندعي أبدا أن النسق الثقافي العربي هو وحده المسؤول عن هذا التاريخ المتوتر والمحتدم من العلاقات المتشنجة وسوء الفهم الحضاري، بل النسق الثقافي الغربي كانت وماتزال له أسباب وأدوار كبيرة في تعزيز هذا الصدام الثقافي وسوء الظن اتجاه الكيان العربي ومنظومته القيمية، غير أننا هنا لا نُبرِّر لأي طرف إذكاء هذه الأحقاد بدعوى أن الطرف الآخر سيء أو يَكُنُّ الضغينة، بل يبقى واجِبنا المعرفي هو ممارسة النقد دون مجاملة أو تبرير لأي طرفٍ كان، واثمين كل خطاب ثقافي يحمل في طياته دعوات التفهّم والتفاهم وتجاوز الأحقاد وتفكيك أنساق الكراهية. فهل لا بد من الجنوح والتجديف إما بالتجريح أو التفخيم في تمثّل الآخر؟ ألا توجد منطقة أخرى لتمثّل الآخر ومحاوَرته ندّا لا هو مُتفوّق ولا هو متدنٍ؟ أم إن سُلطة النسق الهدام لا تعرف منزلةً وُسْطى بين التقديس والتدنيس !!؟.

من هذا المناخ السيكولوجي والذهني العاصف، تُعلن وكالات الأنباء نبأ فوز آدم بجائزة نوبل مُناصَفة مع صديقه من المختبر نفسه، الياباني كاتسومي في فرع هيروشيما. يتفاعل آدم بمنتهى البرودة مع هذا الأمر. ويسمع الصوت الرسمي لقلعة أميروبا يأتي عبر الخطاب السردى الجمهوري: "تبارك قلعة أميروبا ممثلة في الجنرال دافيد حيون دوغلاس، ليتل بروز، لأحد أهم باحثيها السيد آدم غريب صاحب مشروعى PBpu1 و PBpp2، بفوزه بجائزة نوبل للفيزياء. يستحقها بقوة، فهو سيد السلام مع رفقاء مخبره الذين استطاعوا أن يتحكموا في الإشعاعات الخطيرة مما يسهل اليوم استعمال الأسلحة الفتاكة في دوائر ضيقة وضد كل من يهددون السلام العالمي والإنسانية" (الرواية، ص 406). نَسْتَشِفُّ أن الكاتب عبر هذه الصيغة السردية يصوّر أقصى حالة كذب الخطاب الغربي الأمريكي، ودرجة تدليسه على العالم من أجل تبرير استعمال القوة الإفنائية. إنه يحاول أن يرسم فيها الوجه الأحادي الشرير والتدنيسي

¹ جورج طرابيشي، م.س، ص 12.

² يحيى بن الوليد، الوعي المحلق إدوارد سعيد وحال العرب. الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب. 2010 ص 237.

للغرب / أمريكا، إلى درجة أننا يمكن أن نطلق على هذا الأمر: الأمريكوفوبيا أو الغربوفوبيا لدى جانب الذات العربية، كما هو مقابل العربوفوبيا أو الإسلاموفوبيا لدى الجانب الأمريكي أو الغربي عموماً. ومثل هذه الرؤى والتصوّرات الذهنية لن تزيد إلا في تعميق أزمة العالم وتحطيم أواصر السلام.

إن حماسة الانخراط في نادي السرديات البديلة والانضمام إليها باعتبارها موضحة مقاومة ثقافية جديدة تمنح صفة المثقف الملتزم لأصحابها، لكنها قد أسقطت الذات العربية الجريئة في مزالق شعارات فخمة مثل: الإمبريالية، التجربة الكولونيالية، تحطيم المركزية سواء نقداً أو إبداعاً. غير أن لفيفاً ضئيلاً من أبناء الهوية الجريئة هم الذين حاذروا من إعادة شحن الحماسة القومية وتفادوا إذكاء فكرة التمثيل الانتقامي الاستعلائي تجاه الآخر، وهي الفكرة التي تجد مرجعيةً نسقية قوية في التاريخ الخاص الذي يجمع الذات العربية الآخر الغربي. بعبارة أكثر دقة، فإن مسؤولية الذات العربية المبدعة والناقدة لها أكثر جساماً لأنها تُنشئ خطابها الثقافي من داخل منظومة علاقات تاريخية مشحونة مُتوتّرة، بالتالي فكل زلّة من عبارة، وإن كانت عن غير قصد، قد تهوي بنا في جحيم العداء والإفناء الوجودي.

من جهة ثانية، فالملاحظ أن الدراسات العربية المعنية بأشكال تمثيل الذات للآخر تظل قليلة مقارنة بالسعي نحو دراسة أشكال تمثيل الذات لدى الآخر، وهي بذلك ربما تبحث إما عن صورة إنسانية لنفسها تُضَمّد بها الجرح الذاتي، أو تبحث عن صورة هدامة - وما أكثرها في الإنشاءات الغربية حول الذات العربية - تُعزّز الإحساس بشعور الضحية، وتعفي الذات من النقد الجواني. وماذا تكون المُحصّلة لو تساءلنا مثلاً عن دراسة أشكال المركزية العربية تجاه آخرها الإفريقي جنوب الصحراء؟، أو عن صورة الآخر الآسيوي أو الزنجي في المخيال العربي من خلال إنتاجاته وتعبيراته الثقافية في الملفوظ الشعبي أو الرسمي؟. إن الحقل الأكاديمي العربي يفتقر كثيراً وبشكل صارخ إلى هذا النوع من الأبحاث لتحديد رؤية الذات الجماعية العربية إلى نفسها وإلى الآخرين باختلاف وتعدد مشاربهم وروافدهم ومنظوماتهم الثقافية والمرجعية.

من الملاحظات الأخرى التي يمكن أن نختم بها هذا المبحث هي لماذا تُختزل الكتابة المضادة والمقاومة الثقافية في الصدام مع الآخر والتشاحن معه؟، إن القيمة المضافة للرد بالكتابة تتجلى حسب وجهة نظرنا في ممارسة حق وواجب الرد البديل عبر تمثيل وتصوير الآخر دون مُرْكَب تفوق أو استعلاء أو ترابعية مُتوهمة، وبهذا يتلقّى الآخر درساً سردياً عميقاً في المنهج والأفق الإنساني غير المُهادِن، وليس فقط الكتابة ضده لتبديل مضمون انكفائي بآخر مُشابه، وإعادة إنتاج واجترار نفس المُنتلقات النسقية الهدامة. إن الأمر يتعلق بتغيير ميكانيزمات التفكير وليس الاكتفاء بتغيير زمن الكتابة بعد أن صارت الذات الثقافية قادرة امتلاك أدوات التعبير والرد.

لا مشاحة أن واسيني الأعرج واحدٌ من أشهر الروائيين المعاصرين، وأحد أكبر وأكثر المُتوجّين في نسق التلقي العربي، فهل يمكن أن يكون هذا التلقي والانتشار المائز مرتبطاً بكون الكاتب، ليس دائماً عن وعي، من دُعاة وهواة الخطاب العربي القومي المُغلّف في زخرفات أدبية لا يُنكرها أي مُتذوّق للأدب. وإذا كان واسيني الأعرج كاتباً جاداً في

الكتابة التخيلية التاريخية وبارعاً في محاورة النصوص المؤسّسة في السردية العربية، مثل ألف ليلة وليلة، ورسالة الغفران، وباحثاً محتفياً بالأدب الموازية والشعبية بحيث فتحها على آفاق إنسانية رحبة، وله ولزوجته يعود الفضل في مشروع ترجمة مختارات من الشعر الإفريقي باللغة الفرنسية مما يجعله واحداً من أهم الأصوات العربية التي ترد بالكتابة، فإن كلّ هذا الجهد المشهود له، لم يجعله في منأى عن مطبّ النسق الثقافي بما لا يترك مجالاً للشك.

خاتمة

لقد اتضح أن التمثيل الازدراي العربي المعاصر لآخره الغربي من خلال النموذج الذي نحن بصددده، إنما هو حركة ثقافية نسقية ارتدادية نحو تركز الذهنية العربية في وقت مضى، ولأن هدف الدراسات الثقافية هو تصحيح العلاقات الإنسانية وتكريس مبدأ الحوار والاعتراف المتبادل وتجاوز الفكر المركزي التفوّقي، فإننا لا نتفق مع أي خطاب يجتزأ أخطاء الذات العربية في مرحلة ما، كما لا نتفق مع خطاب الهيمنة الغربية على مقدّرات العالم. من خلال هذه الرواية نلاحظ عملية كَرّ وفرّ داخل حركة النسق التاريخي، فمع الأسف إنها نفس ميكانزمات الخطاب الاستعلائي تبقى فاعلة عبر: المعرفة والتمثيل الثقافي، بحيث "إن السيطرة والتفاوت الجائر في امتلاك القوة والثروة لحقيقتان دائمتان في المجتمع البشري"¹، علماً أن الزمن العربي محكوم بسيكولوجية الإنسان المقهور الذي يعاني ما يُسمّيه مصطفى حجازي اضطراب الديمومة، أي اختلاط الأزمنة وتداخلها على مستوى إدراك الذات والعالم، مما يعني خطر أن يتحول خطاب المقاومة الثقافية أو الخطاب المضاد إلى خطاب حامل إواليات الخطاب الكولونيالي ذاتها ولو بأشكال استهيامية تعويضاً عن حالة التبعية والهزيمة الحضارية التي ليس سببها الوحيد هو الآخر كما نؤكد، بل الذات كذلك. وال حال هذه فإن الرهان الإنساني يبقى هو خلق "جو من التفاهم والتعايش بين الذات والآخر، وإعطاء الآخر حقّه كما تُعطى الذات والتأسيس لعلاقات معافاة من الأوهام والتزييف والتشويه"².

إن معرفة الذات والوعي العميق بالتقاليد القومية هو مدخل الآداب الوطنية والرد بالكتابة لإسماع صوتنا للعالم وتقديم سردية الأمة والتعبير بلسانها دون الحاجة إلى انتظار لسان الآخر، غير أن حماسة الذات وآلام جرحها النرجسي قد أججت تلك الحميّة القومية في آداب كُتّاب المجتمعات المقهورة، وشحنّها أحياناً بدرجة من الحديّة التي بلغت الرفض وأمنت بالمواجهة الصدامية نقداً وإبداعاً، وهو ما أنتج بشكلٍ جذلي بعض الكتابات المضادة لهذه الأشكال من السرديات الاحتدامية، وحرّر بعض الأصوات المؤمنة بالتناسج الثقافي والحضاري، وهي أصوات تسعى إلى ترشيد الخطاب الإنساني، في المنطقة الترجمية.

¹ إدوارد سعيد، م.س، ص 89.

² ادريس اعبيزة، المقارنون العرب اليوم- القسم الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. 2014 ص 461.

قائمة المراجع:

1. ادريس اعبيزة، المقارنون العرب اليوم- القسم الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. 2014
2. إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبودييب، الطبعة الرابعة، دار الآداب بيروت، 2014
3. دانييل هنري باجو، الأدب العام المقارن، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، الطبعة الأولى، 2008
4. فرويد، علم نفس الجماهير، ترجمة، جورج طرابشي، دار الآداب
5. مصطفى عبد الغني، الاتجاه القومي في الرواية، عالم المعرفة
6. هومي بابا، موقع الثقافة، ترجمة، ثائر ديب، المركز الثقافي العربي
7. واسيني لعرج، حكاية العربي الأخير 2084، دار موفم للنشر، 2015
8. يحيى بن الوليد، الوعي المحلق إدوارد سعيد وحال العرب. الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب. 2010

الروابط

مشيل فوكو، الرابط، <https://2u.pw/qclZIKq>